— الحقيقة —

ولو بصوتٍ يرتجف

أسعد شفتري

الحقيقة
ولو بصوتٍ يرتجف

ترجمة كلوديا بشارة



تُرجِمَ النص من الأصل الفرنسي
La vérité même si ma voix tremble

إنّ الأفكار والآراء الموجودة في هذا الكتاب
تُلزِمُ مؤلّفها فقط

الناشر: **درغام، بيروت**
www.dergham.com

ISBN: 978-9953-579-95-5

لبنان، تموز ٢٠١٦

تخليدًا لذكرى رفاقي الّذين بذلوا حياتهم من أجل لبنانَ أفضلَ، واحترامًا للمفقودين وأُسَرِهم؛ لكلّ شخصٍ طَبَعتْه الحرب بندوبٍ جسديّة أو نفسيّة لن يمحوَها النّسيان، ولرفاقٍ آخرين، بخياراتٍ وآراءَ متنوّعةٍ، خدموا قضايا أرادوها نبيلةً تمامًا مثل قضيّتنا، ومنهم مَن لا يزال حتّى اليوم يخدم القضيّةَ الواحدة، قضيّةَ المحبّة والإنسانيّة.

المحتويات

المقدّمة

ليس المؤلَّفُ هذا كتابَ فضائحَ، فهو لا يكشف سرًّا ولا يُبيّن أمرًا غير معروف. ليس دراسةً ولا تأريخًا للحرب الأهليّة، وقد كَتَبَ في ذلك كثيرون، وسيحذو حذوَهم آخرون، وجميعهم أفضل منّي.

في كتابتي هذه السطورَ، أردتُ استعراض الماضي، والتّحدُّث عن طفولتي وعن انخراطي في هذه الحرب، وعن سلوكي ونموّي خلالها، إلى تغيّري وولادتي من جديدٍ عند وصولي إلى نهاية النّفق. وإنّي لا أنقل إلّا الوقائع الّتي شهدتها بنفسي أو شاركتُ فيها، ولا أدّعي امتلاكَ الحقيقة المطلقة الّتي يستحيل تجلّيها واحدةً لأنّها ثمرةُ حقائقَ يمتلكها كلٌّ منّا.

لطالما تأثّرتُ بالصّدمة الّتي كانت تنتاب الشبابَ عندما كنتُ أخبرهم عن مدى تفشّي الفساد والدمار والبغض والدمويّة في هذا النّزاع المسلّح. صحيحٌ أنّ معظم آباء هؤلاء شاركوا في الحرب، لكنّهم

لم يحدّثوهم عنها. فكانت تتراءى إلى خيالهم كتلك الّتي تشتعل على شاشاتهم الإلكترونيّة، مع أبطالٍ لا تشوبهم شائبة، ومع قَتَلة لا يندمون، ومع قِتالٍ بلا هدنة ولا اتّفاق على وقف النّار، وحيث يمكن للمرْء أن يعودَ إلى الحياة بعد أن يُقتل. وكانوا يتساءلون: «لماذا لم يحدّثنا آباؤنا عنها؟» فكنتُ أقدّم لهم ثلاثة أسباب: هي تجنيبُهم حقائقَ مزعجةً، ورفضُ إعادةِ فتحِ جروحٍ مؤلمة، والشّعورُ بالعار إثرَ أعمالٍ فرديّةٍ وجَماعيّةٍ كان لا بدّ لهم من كشفها وإدانتها ولكنّهم آثروا السّكوتَ عنها وحجبَها.

إذا شكّل الصّمت تغطية للفضيحة فهو يجعلها تتأزّم. ومع ذلك، قلّةٌ هم الزّعماء الدّينيّون ورجال السّياسة الّذين رفعوا صوتهم للتنديد بتجاوزات بعض المقاتلين. وبما أنّ هؤلاء حظوا أيضًا بتغطية قادتهم، لم يحكم عليهم أحدٌ من مجموعتهم، وإنّما أفلتوا من العقاب «بسبب الحرب».

وكانت القاعدة الأساسيّة بسيطة: لا بدّ من مقاومة العدوّ، وتكبيده خسائرَ فادحةً، وجعله يعاني إلى أقصى الحدود، والثأر لرفاقنا.

بعد عقود على توقيع اتفاق الطائف في العام ١٩٨٩ وإصدار قانون العفو في العام ١٩٩١، لم يرغبْ حزبٌ ولا ميليشيا في مراجعة سلوك عناصرهما ومؤيّديهما، خلالَ الحرب الأهليّة. قد لا نرغب في تذكّر الماضي الدّمويّ، ولكنْ، كيف لنا أن نصدّق أنّ أعداء الأمس سيتعاونون سياسيًّا مع بعضهم بينما تحوم حولهم أشباح الماضي الّذي يُنبش أحيانًا خلالَ المناقشات؟ من أجل التّوصّل إلى التسامح المتبادَل، لا بدّ على اللّبنانيّين كافّة، أولئك الّذين انخرطوا في الميدان، وأولئك الّذين احتموا في الملاجئ، وحتّى أولئك الّذين عاشوا في نيس (فرنسا)، أن يعترفوا بأنّ

صمتهم أو أعمالهم وضعتهم في صفّ المتواطئين أو مرتكبي التّجاوزات والجرائم الّتي نَسَجَت خيوط هذا الكابوس. صحيحٌ أنّ الميليشيات تشتمل على عددٍ واسع من العناصر، إلّا أنَّ كلًّا من هؤلاء يُعتبر مسؤولًا عن سلوك مجموعته على المستوى الفرديّ قبل الجماعيّ. ويُمكن لهذه المقاربة أن تُدخِلَ تغييراتٍ في نفس كلّ شخصٍ وضميره، ما يؤدّي إلى تطوّر الأحزاب إيجابيًّا، ومن ثَمّ المجتمعات المحلّيّة والمجتمع عمومًا، وأخيرًا الوطن.

إنّي أدعو اليومَ، كلّ لبنانيّ ولبنانيّة إلى سلوك درب دي كومبوستيلا[١]، للسّير نحو تغييرٍ لن يحدثَ إذا اكتفينا بإبداء رغبتنا به فحسب. يمكن للتغيير أن يبدأ مع يقظةٍ للضمير في داخل الفرد، على ألّا يتردّد في الإفصاح عنها علانيّةً، إنْ كانت لديه القدرةُ على ذلك، لأنّ مثاله سيُلهِمُ الجميع. ومن جهتي، سئمتُ من انتظار ردّ فعل الآخرين، لذا قرّرت أن أُسمِعَ صوتي، أن أقوم بما اعتبرتُه حتميًّا. ليس لأنّني أَشجَعُ، ولكنْ، ربّما لأنّني قلقٌ من عودة الأحكام المسبَقة والخوف والكراهيّة وروح الثأر وخطر الانتكاسة بسبب الجهل.

١ تعتبر مدينة سانت جاك دي كومبوستيلا الإسبانيّة أكثر مناطق الحجّ المقصودة لدى المسيحيّين الكاثوليك. تحكي الأسطورة أنّ رفات رسول إسبانيا القديس يعقوب الكبير، قد استقرّت بشكل عجائبيّ في المدينة. ويُعَدّ الحجّ إلى كومبوستيلا تجربةً تجذب مزيدًا من الناس اليوم، لأنّ الحجّاج مدعوّون إلى تجاوز قيودهم، ومواجهة أنفسهم وبيئتهم. ويتعرّضون لتجارب جسديّة وإنّما أيضًا نفسيّة. وعندما يصل أخيرًا الحجّاج في نهاية رحلتهم إلى رأس فينيستر، يُحرِقون ملابسَهم القديمة بينما تغيب الشّمس، ما يرمز إلى اختفاء الإنسان القديم وولادة الإنسان الجديد.

نحن ندّعي أنّنا بعيشنا للحاضر إلى أبعد حدود، إنّما بذلك نبني المستقبل. لماذا إذن، يحتدم السّجال بين السّياسيّين والمواطنين العاديّين؟ نال البلد استقلاله منذ سبعين سنة، وما زلنا نفتقر إلى كتاب موحّدٍ عن تاريخنا. استطاعت اللّجان المختصّة الّتي عملت لسنوات طوال، أن تُعدَّ مشروعًا لمؤلَّفٍ يعرض مواقف المجموعات السّياسيّة والطّائفيّة كافّةً، ويترك للأساتذة والطّلّاب حرّيّة استخلاص استنتاجاتهم الخاصّة. إلّا أنّ هذا المشروع لم يبصر النّور قطّ وبقي مخطّط المؤلَّف نائمًا في أدراج وزارة التّربية والتّعليم العالي. وعلى غرار ما حصل في الماضي، عندما انتهت الحرب الأهليّة، وتمّ إعلانُ عفوٍ عامٍّ. فكان اللّقاء والعناق بين المسؤولين الّذين تقاتلوا بالأمس، ولكنّ ذلك لم يؤثّر في الحشود الّتي تمّ تحريضها على مدى سنوات ضدّ بعضها البعض. فما السّبيل في هذه الحالة لجعلهم ينسون مرارة الماضي؟

تتّسم الثّقافة الشّرقيّة بأنَّ طلب الغفران يشكّل وصمة عارٍ. وفي حال حصل ذلك، نقول للّذي أهنّاه أو جرحناه «سامحنا»، مستخدمين صيغة الجمع الّتي تُفقِدُ الأعمالَ الّتي اقترفها الفردُ الطابعَ الشخصيَّ.

وغالبًا ما نستبدل طلب الغفران اللّفظيّ بالتّعانق وتقديم الهدايا والقيام بتعويضات، وتنظيم حفل... ألقى نوّابنا الّذين اجتمعوا في الطائف التّحيّةَ على بعضهم، وتبادلوا القُبَل والتهاني، وبعد أن استحوذوا على مكتسَبات سياسيّة متبادلة، قرّروا إصدار عفوٍ عن جرائمِ خمسَ عَشْرةَ سنةً من الاقتتال من غير أن يفرضوا على مقترفيها التّعبير عن ندمهم أو التّكفير عن ذنوبهم، علمًا أنّ هذه هي الشروط الأساسيّة للغفران الحقيقيّ وللمصالحة في أرجاء الأرض، باستثناءِ لبنانَ. حتّى إنّ مجلس الوزراء الأوّل ما بعد الحرب اشتمل على زعماء الميليشيات

المتنوّعة والحركات المسلّحة فارضًا الأومرتا[2] على الضمائر والبلاد. فلم يتمَّ اتّخاذُ أيّ إجراءات لفهم أسباب النّزاع، ومنع انتشار الأسلحة في كلّ مكانٍ، وحلّ الأحزاب الّتي شاركت في النّزاع، ومعرفة مكان المفقودين الّذين يقدّر عددهم اليوم بسبعةَ عَشَرَ ألفَ مفقودٍ، وتهيئة أعضاء الميليشيا السّابقين على الاندماج في حياةٍ مدنيّة طبيعيّة.

شئنا أم أبينا، لا بدّ من الاعتراف بأنّ حروب الماضي كافّةً تبقى في جيناتنا، وأعرافنا، وذاكرتنا الجَماعيّة. وهي تشكّل جزءًا من ثقافتنا: فعند ولادة صبيّ، تتهادى إلى المسامع «خلق بارودة» (كلمة بارودة تعني بندقيّة باللّغة العامّيّة)، أو القول المأثور «تعشّى عند الدرزي ونام عند المسيحي»، أو قولٌ آخر يعتبر أنّ «من يتزوّج من غير دينه اللّه يعينه». تكتظّ شوارعنا ومنازلنا ومؤسّساتنا بالقتلى المحتمَلين، وتبقى أسلحتنا طوال الوقت بمتناول يدنا، ونعرضها بكلّ فخرٍ في الأعياد الدينيّة وأثناء الخطابات السياسيّة، وحتّى في المناسبات الرياضيّة، وندرّب شبابنا على استعمالها. ونحن إذ نهتف للقادة المتوفّين أو المقتولين منذ عقود، إنّما نرفع موتانا إلى مصافّ الشّهداء، نحتفل بالقداديس عن أرواحهم لدى المسيحيّين، ونرفع الدعاء لدى المسلمين لتسليط الضّوء على بسالتهم. نحزن على موتانا ولكن، منفصلين. وتقتصر النّصب التذكاريّة الوحيدة الّتي تكرّم اللّبنانيّين كافّة على اختلاف انتماءاتهم بتمثال الشهداء الّذين لاقَوا حتفهم على يد العثمانيّين، وبضريح الجنديّ المجهول الخاصّ بالجيش.

٢ الأومرتا أو قانون الصّمت. تندرج هذه الكلمة الخاصّة بصقلية ضمن الحقل المعجميّ للمافيا. تعتبر الأومرتا قاعدة ضمنيّة يفرضها رجال المافيا في إطار ممارسة شؤونهم الإجراميّة، ما يفرض عدم الإبلاغ عن الجرائم والإدلاء بشهادة زور من بين ممارساتٍ أخرى.

وفي هذه الحالة، لا يمكن التّغاضي عن دور القنوات الإذاعيّة والتلفزيونيّة الخاصّة الّتي تغذّي باستمرار الأحكام المسبقة والكراهيّة. وعلى الرّغم من أنّ قانون العام ١٩٩٤ نصّ مرارًا على أنّه لا يمكن للشخص أو المؤسّسة الاستحواذُ على نسبةٍ تفوق ١٠٪ من الأسهم، وعلى أَنّ المالكين لا بدّ أن ينتموا إلى ديانات مختلفة، تملك رسميًّا مجموعةٌ من الأشخاص وسائلَ الإعلام، ولكنّ هذه الأخيرة، تبقى في الحقيقة بيد الأحزاب والجماعات السّياسيّة. يُوظَّف فيها مؤيّدوها الأوفى والأفصح فيجعلون من تلك الوسائل أداةً للترويج، وغسل الدّماغ، والتوظيف، وحلبة مصارعة للديكة، ويقدّمونها إلى مشاهدين مولَعين ببرامجَ حواريّةٍ محتدمة.

وإثرَ ممارسة هذا الكمّ من الترداد، لا يمكن للمرء إلّا أن يتحوّل إلى ضحيّة. يبدأ المواطن أوّلًا، متابعةَ الأخبار بانتظامٍ، على محطّته المفضّلة. فيتحوّل تدريجيًّا، ما يراه ويسمعه، بما في ذلك الشائعات، إلى حقيقةٍ صرفةٍ ويصبح كلّ مصدرٍ آخر مضلّلًا. وبذلك تصبح هذه المحطّةُ محطّتَه، وهذا الحزبُ حزبَه، وهذا الزّعيمُ زعيمَه. وتغذّي المعلومات والمناقشات والحوارات والمؤتمرات والخطب عمليّة تقويض الذّكاء والأخلاق والاستقامة والتّفكير النقديّ، فيتغلغل ببطءٍ في عقل المواطن، الخوفُ من الآخر، ويتعيّن عليه حماية نفسه والدّفاعِ عنها. فيحوز الفرد سلاحًا وينتهي به المطاف في الانضمام إلى حزبٍ.

غرق اللبنانيّون في حالة من الخمول المنوّم، وانزوَوا في مواقفهم المتصلّبة والعنيدة، وهم مقتنعون بأنّهم يمتلكون الحقيقة، كلّ الحقيقة، وبأنّ الآخر على خطأ أو يكذب. وباتوا منقسمين أكثر من أيّ وقتٍ مضى. يمكنهم إجراء نقاشات وجدالات تدوم ساعاتٍ، بل أسابيعَ وأشهرًا

عدّة من غير أن يقبل أحد التشكيك في معتقداته. وتكون النّقاشات السّياسيّة عبارة عن مونولوج مع رفض الإصغاء إلى الآخر. فتبرز الخلافات ويغيب الحوار. وتصبح المناقشة مبارزةً تفوز في نهايتها إحدى الفَرَضيّات المطروحة. أمّا الحوار، فهو حديث يتمّ تناوله، لا ليكون الشّخص على حقّ، بل لإيجاد حلّ يجمع بين الحقيقة الّتي نمتلكها، وتلك الّتي يمتلكها الآخر. فيتمّ تفضيل المصلحة المشتركة، والإصغاء إلى الآخر، ويكون الجميع مستعدّين بدون أيّ مشكلة لأن يعدّلوا رأيهم أو يغيّروه كلّيًّا. ويُغني حوارٌ من هذا النّوع الإنسانَ، إذ يكتسب بعده صداقاتٍ جديدةً، ويصبح مستعدًّا لاستشارة الآخر في حال وَجَدَ صعوبة في تطبيق القرارات الّتي تمّ اتّخاذها خلالَ الحوار.

لو كانت وسائل الإعلام تشجّع على إجراء حوارٍ صادقٍ، سيكون الجمهور عالمًا وملمًّا بالأمور، وواعيًا للوقائع الموجودة من غير أن يبقى مقيَّدًا بتأليه زعيمه القائد. لكنْ في لبنان، كما في أيّ مكانٍ آخرَ، تعتمد وسائل الإعلام على تقييم كثافة المشاهدة. وتبحث شركات الإعلانات دائمًا عن البرامج الّتي تتمتّع بنسبة مشاهدة مرتفعة، وهذه النّسبة مضمونة في النّقاشات بين الخصوم السّياسيّين الّذين يتلاعب بهم مقدّمو البرامج.

أنا لا أشير اليومَ، بإصبع الاتّهام إلى أحدٍ. فهدفي الوحيد هو اعترافي بذنبي. بعد سنوات طويلة من التأمّل، أُقِرّ بأنّني ارتكبت أعمالًا منافية لِقيَمي الأخلاقيّة ولإيماني المسيحيّ، سواء أكان ذلك في تصرّفاتي على المستوى الوطنيّ خلال الحرب أم في مواقفي الشّخصيّة الذّاتيّة في الحياة اليوميّة، كما دفعني عدم الصدق إلى الخداع والكذب على الله، وحملتني «الأنا» المريضة على إقناع نفسي بأنّني مثاليّ، وبأنّ كلّ اعوجاج فيّ يُعزى

إلى أعذار مثل «القضيّة العُظمى»، أو ضعف البشر أو حتى صعوبات الحياة.

قد يَظنُّ البعض أنّه لا يجدر بضميري أن يؤنّبني لأنّني كنت أنتمي إلى وحدات منظّمة يستحيل فيها مناقشة الأوامر. لا يمكنني أن أقبل هذه الحجّة. لم يُفرَضْ عليّ أمرٌ قطّ في الحرب الأهليّة، بل كنتُ أتصرّف بكامل إرادتي، ولم يَحكُمْ عليّ أحدٌ بسبب أيّ عصيان. فحين كنتُ لا أوافق على أمرٍ ما يُوجَّه إليّ، كنتُ أناقشُه وقد تمكّنتُ أحيانًا عديدةً، منْ تغييرِ أوامرَ وإلغاءِ أخرى. فنحن لم نَكُنْ جيشًا نظاميًّا، بلْ كنّا أحرارًا بأَنْ نتركَ كلَّ شيء خلفَنا ونعودَ إلى منازلنا من غير أن نُعامَل كفارّين من الخدمة. وبالفعل، لقد قام كثيرٌ من المقاتلين بذلك. لذا، فأنا أتحمّلُ كاملَ المسؤوليّةِ، وأدعو أولئك الّذين لا يريدون تحمّلَ مسؤوليّاتِهم بحجّة أنّهم كانوا ينفّذون الأوامرَ، إلى أن يُقيّموا الماضيَ على المستوياتِ الروحيّةِ والشّخصيّةِ والنّفسيّة. فإنّ ذلك سيُساعدُنا على المستوى الوطنيّ.

في النهاية، ما نَفعُ هذا الاعترافِ العلنيّ بما عشتُه خلالَ الحرب الأهليّة وما بعدها؟ لماذا أَنكأُ جراحَ الماضي، وأذكّرُ بالخسائر والصَّدَمات، وأعودُ لأعيشَ لحظاتِ عارٍ تَعملُ الذاكرةُ الّتي لا تحتفظ إلّا بالذكرياتِ الجميلة، على سَتْرِها؟

يُلبّي هذا الكتابُ واجبَ إحياءِ الذاكرة، والذاكرةُ دَيْنٌ علينا بحقِّ مستقبلِ الشباب. وآمل أن يُؤدّيَ الاعترافُ هذا إلى الغفرانِ، فلا معنى ولا قيمةَ لأيّ غفرانٍ ناجمٍ عن النّسيانِ.

أيّام الطّفولة والصِّبا

كان جدّي نخلة دبّاغًا، وَلَدَ أبي إميل في العام ١٩٢٤، ولكنْ لأسبابٍ مجهولة، لم يتمّ تسجيلُه في الأحوال الشّخصيّة إلّا بعد مرور عامين. كان أبي الإبنَ الأصغرَ في أسرةٍ مؤلّفةٍ من أربعةَ عَشَرَ طفلًا، تُوفّي سبعةٌ منهم في سنّ مبكّرة. وبلغ فارقُ العمر بينه وبين شقيقته الكبرى ليندا ثلاثين عامًا. ترعرع أبي في الحيّ المسيحيّ في الجمّيزة، ذاك الحيّ الّذي لم يغادره أبوه وجدّتي أديل أبدًا مع العلم أنّهما كثيرًا ما غيّرا مكان سكنهما. بعد أن أنهى إميل تحصيله العلميَّ حتى صفّ الفلسفة في مدرسة الفرير، التحق بكلّيّة الحقوق في جامعة القدّيس يوسف اليسوعيّة، لكنّ وفاة والده أجبرته على تَرْك الدراسة لتأمين لقمة العيش.

أبصر أبي النّور في عهد الانتداب الفرنسيّ، ودرس باللّغة الفرنسيّة، ولم يعرف أسلافًا سوى الغاليّين –ولطالما كان النّشيدُ الوطنيُّ الفرنسيُّ

«لامارسييز» الّذي ما زال يُنشِدُهُ حتّى اليوم، منتصبَ القامةِ ومفعمًا بالأحاسيس، نشيدَهُ الوطنيَّ – فعمل آنذاك في ما كان معروفًا بـ«بارك أوتو» التّابعةِ للمنتدبين الفرنسيّين، ومن ثَمَّ في قسمِ اعتراضِ المكالمات الهاتفيّة حيث سبقه اثنان من إخوته وواحدة من أخواته.

أظهرت دراساتي المعمّقة لشجرة عائلتي أنّه منذ خمسة أجيال، نجح أحد أجدادي الّذي غرق قاربُه قبالةَ شاطئ البترون في الوصول إلى الشّاطئ سباحةً، واستقرّ في المنطقة حيث تزوّج بشابّة من عائلة فيّاض. ونظرًا لأنّه كان دائمَ العبوسِ والشّفترةِ، مُنِحَ كنيةَ «الشّفتري»، اسمَ عائلتِنا الحاليَّ. أمّا بالنّسبة إلى الإسم الفعليّ لهذا الجدّ، فجُلَّ ما نعرف أنّه امتلك تناغمَ حروفٍ يونانيّةٍ، فربّما نتحدّر من أصل قبرصيّ أو يونانيّ.

وشاء القدرُ أن يستقرَّ في حيِّ الجميّزة ذاته أَسعدُ قطيط الّذي أصبح جدّي من ناحية أمّي، وتنتمي والدتُهُ أيضًا إلى عائلة شفتري؛ كان يمتلك معملَ أحذيةٍ، ومحلًّا لبيعها، تقصُدُه نخبةُ المجتمعِ اللّبنانيِّ والمقيمين الأجانبِ. تُوفّيت زوجته تاركةً له فتاةً وحيدة في الخامسةَ عَشَرَ من العمر تُدعى عائدة. التحقَت تلك الأخيرة الّتي أصبحت في ما بعدُ والدتي، بمدرسةِ راهباتِ العائلةِ المقدّسةِ الفرنسيّةِ، ثُمّ تركَتْ مقاعدَها في سنّ الخامسةَ عَشَرَ لتتزوّج إميل بتدبيرٍ من قريبة بعيدة وكان يكبرُها بعَشْرِ سنوات. قطن أبي المتحدّر من عائلة كبيرة وأقلَّ ثراءً في مبنى والد زوجته أسعد، في شارع مار مارون في الجمّيزة، وكعربون امتنان له، أعطاني أبي اسم أسعدَ تَيَمّنًا به، وهو اسمٌ «عتيقٌ» لفتًى، فاستُبدِلَ باسم «سوسو» ودامَ إلى فترة ما بعد زواجي.

البكالوريوس في السّادسةَ عَشَرَ من العمر

أنا الإبنُ البكر في عائلةٍ تتألّف من فتاة وثلاثة صبيانٍ، توفِّي أحدُهم في سنّ مبكّرة. أتممْتُ صفوف الحضانة في مدرسة راهباتِ العائلةِ المقدّسةِ قبل أن أنتقلَ إلى صفّ الروضةِ الثانيةِ في مدرسةِ الفرير – معهد القلب الأقدس – حيث بقيتُ لغاية صفّ البكالوريوس، قسم الرياضيّات، وحصلتُ على الشهادة في عمر يناهز ستّة عَشَرَ عامًا. ترعرعْتُ في أحضان عائلةٍ ناطقةٍ باللّغةِ الفرنسيّةِ، وقد اعْتمدْتُها كلُغتي الأمّ منذ طفولتي، ما دَفَعَ بوالدتي إلى التّوسُّط في كثيرٍ من الأحيانِ عند إدارةِ المدرسةِ لكي أنجحَ وأنتقلَ صفًّا، على الرّغم من دَرَجاتي المنخفضةِ في اللّغةِ العربيّةِ الّتي كنتُ أراها تتناقض وهُوّيّتي اللّبنانيّةَ. وفي المدرسةِ، لم نحظَ بالتّشجيع لتكلّم اللّغة العربيّة؛ ففي خلال الاستراحات القصيرة، كانت تُوزّع بطاقات تُدعى «إشارة» على التّلامذة الّذين يضبَطون وهم يتحدّثون اللّبنانيّة العامّيّةَ، وينالُ حظَّه من العقاب كلُّ من عادَ إلى الصّفِّ حاملًا تلك الإشارة.

نقلَتْ إلينا أمي، عائدةُ، العصاميّةُ والقارئةُ النَهِمَةُ، شَغَفَها بالمعرفةِ وحبَّها للمطالعة. فأصبحَت الدّراسةُ شُغليَ الشّاغلَ، وفي عطلةِ نهايةِ الأسبوع، لم أعرفْ هوايةً سوى الكتاب. وفُرِضَتْ عليّ القراءةُ باللّغة العربيّة، فاعتبرتُها بمثابةِ دواءٍ منوّم. كنتُ، حالما آوي إلى الفراشِ، أقرأ باللّغة الفرنسيّة أو الإنجليزيّة لأنّني التحقت بنادي اللّغةِ الإنجليزيّة في المدرسةِ، فكنتُ لا أنتقلُ إلى اللغة العربيّة إلّا ساعةَ النوم، فيَغلبُني النعاسِ في غضونِ دقائقَ قليلةٍ. ولا أذكرُ قطّ أنّ والديَّ استمعا إلى أغانيَ شرقيّة، ما عدا أغاني الفنّانَين اللّبنانيّين فيروز ووديع الصافي، أمّا الأقراصُ الأخرى، فكانت باللّغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة. في العام ١٩٦٧، عندما

كنتُ في الصفِّ الثّامن، سَحَرني مؤتمرٌ للشاعرِ سعيد عقل الّذي اعتَبَر أنّ اللّغةَ العربيّةَ الفصحى ليست لغتَنا. وأخيرًا وجدت أفكاري توأَمَها. اقترحَ كتابةَ اللّهجةِ اللبنانيّة بالحرف اللّاتينيِّ، وعندَ نهايةِ المؤتمرِ، اشتريتُ أحدَ كتبَهِ المكتوبَ بتلك الطريقة «Ayat wa souwar» (آيات وصُوَر).

في أيّام الخميس بعد الظّهر، كنّا نزورُ عمّتي إيفون الّتي تسكن في شارع ويغان، عندَ محطّة الديك. كانت من الأوائل الّذين اشترَوا تلفازًا، فكنّا نُشاهدُ مسلسل رانتانتان الّذي يروي مغامراتِ جنديٍّ شابٍّ وكلبِه في الغربِ الأميركيّ، وعندما بلغتُ التّاسعةَ من العمر، اشترى جدّي أسعد تلفازَه الأوّلَ. لكنْ، بما أنّه كان يشاهدُ الأفلام العربيّة فحسب، بقيتُ بعيدًا عن التّلفازِ إلى حينِ وفاتِه. كرهْتُ تلك الأفلامَ الّتي تختلفُ فيها الثقافةُ عن ثقافتنا، أفلامٌ قديمةٌ وسخيفةٌ. ومن هذا المنظورِ، كوّنْتُ فكرةً كاريكاتوريّة عن تلك الثقافة وعالمِها، سرعان ما تحوّلَتْ إلى تحيُّز ضدَّ المواطنينَ المسلمينَ في بلدي.

كنّا نُمضي فصل الصّيف على مرتفعاتِ عاليه، في محافظةِ جبل لبنانَ، وهي تبعد ١٧ كيلومترًا عن بيروت، لذا تُعتبَر بعيدةً نوعًا ما، عن مكانِ عَمَلِ والدي الّذي عمل في مصرفٍ في ستاركو. وفي نهايةِ العام الدراسيّ، كنّا نحزم أمتعتَنا بما فيها الأَسِرّة ونقرّرُ ما سوف نأخذه معنا قبل وصول «العتّالة» الّذين يحملون أيضًا في شاحنتهم مفروشاتٍ كانت تُوضَّب في سقيفة المنزل. كنّا ننتظرُ فصل الصّيف بفارغ الصّبر. كان الصيف لنا، زمن المرح لأنّنا كنّا نشعر خلاله بالراحة، وننعَمُ بمقدار حرّيّة في عاليه أكثر منه في بيروت. وعندما كان والداي يُطلقان لنا العنان، كنّا نتنزّه في شوارع البلدة على الدّراجات، ونذهب إلى السّينما لنشاهد أفلامًا في غرف قديمة مزخرفة تعرض فيلمين متتاليين. وكنّا نخيّم مرّتين على الأقلّ في الموسم نفسه، في غابات الصنوبر على رأس الجبل. وكان المنزل الّذي

نستأجره مُلكًا لدروزٍ، فما كان من طريقة لباسهم، وإلقائهم التّحية إلّا أَنْ تزيدا من غرابةٍ طريفةٍ للبيئة من حولِنا.

ولا أذكرُ أنّي خرجْتُ في المدينة، خلال فصل الشتاء، سواء وحدي أو مع الرفاق، قبل سنِّ الخامسة عَشَرَ. لأنّ شارع مار مارون كان دائم الازدحام، فكنّا لا نلعب فيه ولا نُنشئُ صداقاتٍ مع رفاقٍ من الشّارع. لذا، فقد كان أقرب الأصدقاء، في عُطل نهاية الأسبوع وخلال فصل الصّيف، قريبيْن لي من الدرجة الثانية، هما شاهين، وكان أصغر منّي بستّة أشهر، وأنطوان-كاميل، وكان في سنّ شقيقي إيلي. كنّا نلعبُ معًا وكانت نزهاتُنا الوحيدة تُوصلُنا إلى كنيسة الحيّ، أو إلى محلّ فستق قرب المدرسة، وكانت تسليتُنا المفضّلة نزهة آخر الأسبوع مع والديَّ إلى وسط بيروت التجاريّ. يؤسفُني أنّ الأجيال الحاليّة لم تعرف أسواق عاصمتِنا القديمة.

«إجت الـ١٦، اهربوا»، كثيرون يتذكّرون تلك الصرخة الّتي كانت تعلو عند وصول آليّةٍ من آليّات الفرقة ١٦، فرقة النخبة في قوى الأمن الداخليّ، المؤلّفة من شبّانٍ اشتُهروا بقوّتهم وسرعتهم وصلابتهم، فكانوا يفرضون هيبتَهم على الجميع، ولم يكن أحدٌ يجرُؤ على مواجهتهم. يضربون ومن ثَمّ يطرحون الأسئلة. وإذا بدا لكم أنّني أتحدّث عنهم بتأسُّف وحنينٍ إلى الماضي، فأنتم على حقّ. وليست الفرقةُ بحدّ ذاتها ما أتحسّرُ عليه، وإنّما سلطة الدّولة الّتي كانت هذه الوحدة تمثّلها؛ سلطةٌ أقوى من المكوّنات السياسيّة والدّينيّة، إذْ تنبسط على أراضي البلاد كافّة وتمارس صلاحيّتها بفعاليّة مطلقة.

لطالما عانيتُ من الخجل الّذي شكّل إحدى عقباتي الرئيسة في الحياة. وكم قلقتُ ممّا سيقوله الناس، وحرصْتُ على اتّباع قواعد الأدب واللّياقة إلى أقصى الحدود، لذا، وخوفًا من التّفوُّه بحماقةٍ، أو احترامًا

لمن يتحدّث معي، فقد قَلَّ كلامي. هل يُعزى ذلك إلى ولادتي في فصل الشّتاء الكئيب والحزين؟ أو لأنّني أصغر أقربائي وقريباتي وأصغر تلميذٍ في صفّي؟ ولكنّني أعتبرُ نفسي رجلًا قياديًّا، فخورًا بنفسه، لا ينجرّ وراء المشاعر على الإطلاق، ويفكّر في كلّ حركة يُقدِم عليها، ويحلّل كثيرًا. كانت «عقلاتي براس طربوشي»، كثيرًا ما كنتُ أُفاجِئ مَن حولي بتقلّباتي المزاجيّة لأندمَ بعد بضع دقائق. كنتُ خدومًا، وأبادرُ من تلقاء نفسي لأُساعد غيري من غير أن يُطلَب إليَّ ذلك. ولطالما سبّبت لي «الأنا» مشاكل عديدةً.

وُلدتُ في طائفة الروم الأرثوذكس، لكنّني درستُ في مدرسةٍ كاثوليكيّة، لذا لم أحصل على تعليمٍ دينيٍّ خاصٍّ بمذهبي. ففي الطّقوس الأرثوذكسيّة، يتقدّم الطفل إلى المناولة فورًا بعد المعموديّة. لكنّ والديَّ فضّلا أن أتحضَّر مع رفاقي في المدرسة بحسب الطّقوس الكاثوليكيّة لأتعلّم سرّ الإفخارستيّا وسرَّ التوبة، ما أثار امتعاض عمّةٍ، اعتبَرَتْ أن تصرُّفات والديَّ عبارةٌ عن ليبراليّة مفرطة. عُرِفَ الروم الأرثوذكس بشوفينيّتهم، لكنّنا لم نكن كذلك، فوالداي تتلمذا في مدارسَ كاثوليكيّةٍ. ونادرًا ما كنّا نذهب إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة خارج أسبوع الآلام، أمّا قدّاس يوم الأحد، فكنّا نشارك فيه في كنيسة مار مارون أو كنيسة تيرا سانتا الفرنسيسكانيّة.

لم يكن والداي متشدّدَين دينيًّا، ويتّسم إيمانُهما بالبساطة والصراحة والاتّزان. ونادرًا ما كنّا نصلّي مع بعضنا. فكلٌّ لنفسه واللهُ للجميع. وكان لمعتقداتي، وتعليمي الدينيّ، ولوالديَّ دورٌ هامٌّ في بثّ الرغبة لديّ في أن أكون مسيحيًّا صالحًا. لم أصبح مؤمنًا بالوراثة لأنّ المسيحيّة كانت خياري منذ المراهقة. فقد انخرطتُ تباعًا في حركة الشّبيبة الطالبيّة المسيحيّة،

وجمعيّة مار منصور دي بول الخيريّة، وحركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة. وفي مدرسة الفرير، كنّا نحتفل بالقدّاس في البداية ثلاث مرّات في الأسبوع ومن ثَمّ مرةً واحدةً، بالطّقوس اللّاتينيّة، والمارونيّة، والكاثوليكيّة بالتّناوب. وفي الخميس الأوّل من كلّ شهرٍ، كنتُ أشارك في رتبة السجود أمام القربان المقدَّس، في كنيسة المدرسة لأُراجع ضميري وأُصلّي لخلاص نفسي، وللّذين أُحبّهم، وللبنان. رفضتُ أن أتحوّل إلى آلةٍ تتلو عشرات المسابح بشكلٍ ميكانيكيّ، أو إلى ذاك المؤمن الّذي لا يغادرُ الكنيسة قبل أن يقبّل الأيقونات جميعَها. ونادرًا ما كنتُ أتركُ الصّليب يظهر فوق قميصي، لأنّه كان أمرًا يخصّني أنا فقط.

اعترفتُ بخطاياي بانتظامٍ ولكنْ، لا بدَّ أن أذكر أنّ عدد الكهنة المُعرِّفين الصالحين تناقص شيئًا فشيئًا. في الواقع، أصبح الاعتراف نوعًا من التّمرين الميكانيكيّ، والتكفير عبارةً عن «خمسة أبانا» و«خمسة السلام» من غير التّعويض عن الضرر المُلحق بالآخرين. وقد جعل المرحوم الأب ضاهر من الاعتراف عذابًا إذْ عانى صعوبةً في السمع، فكان يكرّر بصوتٍ عالٍ في كنيسة المدرسة المزدحمة بالتّلاميذ والمعلّمين، الذنوب المُعترَف بها، ما تسبّب بضحكاتٍ ونظراتٍ ماكرةٍ موجّهةٍ إلى كلّ من يغادر كرسيّ الاعتراف.

كنتُ أَعتبر سرقة خمسة قروشٍ عملًا غير مقبولٍ على الإطلاق، ولطالما نظرتُ إلى القتل على أنّه خطيئةٌ مميتةٌ وعملٌ غايةً في السوء من وجهة نظر الكنيسة. ولم أفكّر أبدًا أنّني سأُقدم على القتل يومًا ما. فماذا حوّلني إلى قاتل؟ ما الّذي دفع ذلك الشّاب المسيحيّ الّذي أراد الكمال إلى أن يصبح آلة قتل؟ أذكر أنّي في السّابعة من عمري، وكنّا في أوّل مخيّم للأشبال، رأيتُ مسدّسًا في حقيبة الظهر الخاصّة بالكاهن المرشد

الفرنسيّ. وكانت تلك المرّة الأولى الّتي أرى فيها مسدّسًا عن قُرب. وقد أوضح لنا الكاهنُ يومها أنّ السّلاح هو مجرّد تدبيرٍ وقائيّ لحمايتنا. ويُحتمَل أنّني في تلك اللحظة ربطتُ في ذهني الدين بالسّلاح، والأمن بالأسلحة.

لم أُلحِق يومًا أذًى عميقًا بأحدٍ ورفضتُ الكثير من الصفقات المشبوهة الّتي كانت لتجعلني رجلًا ثريًّا، رغم أنّني كنتُ قادرًا على كلّ شيء، بَدْءًا من السرقة، مرورًا بالخطف، والتّعذيب، ووصولًا إلى القتل، مكرّرًا لنفسي كي أُريح ضميري، أنّني أقتل لقضيّة المسيحيّين وللبنانَ، لا لأسبابٍ شخصيّة. وفي يومٍ من الأيّام، قام كاهنٌ، مدفوعٌ أيضًا بتصوّرٍ خاطئ عن قضيّة المسيحيّين، كنتُ قد اعترفتُ له بأنّ مسؤوليّاتي تُحتّم عليّ قتل الآخرين، بإعطائي مُسبقًا الحلّة من الخطايا عن خمسمئة مرّة. حتى أنّه طلب منّي أن أعود إليه حالما أُحقّق هذا الرّقم. أتراه مُذّاك تصالح مع الخالق؟

على الرغم من يقيني أنّني سأندم على ما أقدمتُ عليه، ممّا يتنافى مع المعايير الأخلاقيّة الّتي أُؤمن بها، إلّا أنّ خياراتي السّياسيّة تفوّقت على عقيدتي الدينيّة ومبادئي الأخلاقيّة. وتخبّطتُ أخيرًا في صراعٍ بين شخصيّتين: أسعد شفتري المُحارب وأسعد شفتري ما قبل العام ١٩٧٥.